

ساعي الغروب

حمادة حامد محمود نور الدين

كان جدّي آخر من يطرد الشمس من قريتنا.

كل مساء، قبل المغرب بساعة، كان يخرج من بيته المطليّ بالنيلي حاملًا جرسًا نحاسيًا صغيرًا لا يشبه أجراس الكنائس ولا أجراس المدارس، ويمشي على المصطبة الطويلة التي تعانق النيل من الجهة الغربية، يرنّ مرة كل عشر خطوات، ويقول للناس الذين يمرّون: «جهّزوا قلوبكم، الشمس هتنزل.»

كنت صغيرًا أظنها مهزلة، وكبرت وأنا أراها مهنة بلا راتب. الأولاد في القرية كانوا يجرون خلفه مقلّدين رنينه بعلب الصفيح الفارغة، والرجال على مقهى الحاج بدر كانوا يهزّون الرؤوس ويقولون «عم فاضل بقاله تلاتين سنة بيطرد الشمس، والشمس عنيدة، مش راضية تروح.» وجدتي، رحمة الله عليها، كانت الوحيدة التي لا تضحك. كانت تضع له طبق العشاء على النار قبل أن يخرج بربع ساعة، وتقول لي وأنا أستغرب انتظامها: «أبوك ده بياخد الناس حقّها من اليوم. حقّها إيه يا ستي؟ حقّها إنها تتقفل.»

حكى لي جدّي مرة واحدة فقط كيف بدأ الأمر. كنا على المصطبة، وأنا في العاشرة، حين قال وهو ينظر إلى الماء: «أخويا عاشق كان

بحّار على سفينة بضايع. غرق قدام رشيد وأنا في نفس سنّك. أمي، ستّك الكبيرة، فضلت أربعين يومًا تقعد على الشط من الفجر للمغرب، مش عشان تلاقيه، عشان محدش قالها إن يومها خلص. في يوم الأربعين وقفت، دخلت البيت، طبخت، ونامت. وساعتها عرفت إن الناس مش بتموت من الغرق، الناس بتموت من الأيام اللي مالهاش آخر.» ثم رنّ جرسه ولم يُكمل. الجرس نفسه، قالوا لي بعدها، من نحاس سفينة أخيه المرفوع من القاع؛ لكن جدّي كان يكره هذه الحكاية لأنها «تحوّل الشغلانة إلى عزاء»، وكان يردّ على من يسأله عن أصل النحاس: «ده جرس وخلاص، الجرس أخف من السفينة على القلب.» في القاهرة، حيث هربت بعد الثانوية لأدرس التجارة، لم تكن الشمس تحتاج من يطردها؛ كانت تنزل خلف العمارات كأنها تستأذن ولا أحد يردّ. وكنت أنا تحديدًا من لا يردّون. عشت ثلاث سنوات في سكن من ستة أسرّة في فيصل، أدرس محاسبة لا أفهم لماذا اخترتها، وأرسب في امتحانات لا أفهم لماذا أعيدها، وأشاهد من نافذة الدور السابع غروبًا لا يعلنه أحد فيمرّ كأنه لم يكن. وحيدًا في غرفتي، كنت أفهم لماذا يحتاج الناس إلى آذان المغرب: ليس لأنه يخبرهم بالساعة، بل لأنه يقول لهم إن أحدًا،

في مكان ما، يراقب النهار نيابة عنهم ويعلن نهايته في وقتها. لكني لم أربط يومها بين الآذان وبين جرس جدّي. كنت أظنهما صدفة من صدف الأصوات. وحين سألني زميل في السكن الجامعي ذات مساء: «جدّك ده بيعمل إيه بالظبط؟» ضحكت وقلت: «مجنون القرية، لكن مجنونها الرسمي.»

ثم ماتت أمّي.

لم يخبرني أحد بصراحة. أرسل لي عمّي رسالة مقتضبة: «تعالى يا محمود، أمك تعبانة شوية.» وحين وصلت بعد سبع ساعات في القطار كانت لافتة العزاء قد عُلّقت على باب الدار، والنساء يدخلن ويخرجن كأنهنّ موج. أمي التي كانت تعدّ لي عرقسوس الغروب على المصطبة نفسها، ماتت وهي «تتسوّل الدقيقة»، كما قالت جارتنا عزّة، يعني ماتت فجأة، رحمة الله عليها.

في ليلة العزاء الثالثة، خرج جدّي، البالغ من العمر ثمانين سنة، من البيت حاملًا جرسه. صرخت فيه عمتي من النافذة: «يابا مش النهارده! الناس عايزة تسمع القرآن مش الجرس!» لكن جدّي لم

يلتفت. مشى على المصطبة، ورنّ مرة كل عشر خطوات، وقال للفضاء الفارغ: «جهّزوا قلوبكم.»

غضبت منه بشدة حتى ظننت أن الغضب هو الحزن نفسه متنكرًا. وتبعته في الليلة الرابعة، لا لأساعده، لكن لأقول له إن الشمس لا تفهم العربية ولا غيرها، وإن القرية تضحك عليه منذ ثلاثين سنة. لكنني حين وصلت إلى المصطبة وجدت مشهدًا لم أتوقعه: خلف جدّي، على بعد خطوات، مشت امرأتان من بيت الهواري، وجارنا الحاج متولي، وطفل لا أعرفه يجرّ كرة مثقوبة. لم يكن أحد يتكلم. كانوا يمشون خلف الجرس كأنهم في صفّ لا يراه إلا الحزانى.

عرفت أسماءهم واحدًا واحدًا في الليالي التالية. المرأتان من بيت الهواري كانتا خالتين فقدتا أخاهما في حادث طريق أسيوط منذ تسعة أشهر، ومنذها لا تتكلمان إلا نادرًا، لكنهما تمشيان كل ليلة. الحاج متولي ابنه الوحيد في السعودية منذ أحد عشر عامًا، يتصل في الأعياد فقط، ويقول عن نفسه: «أنا مش زعلان، أنا بس بحب أسمع الجرس عشان يقنعني إن لسه في حاجة بتيجي في معادها.» والطفل ذو الكرة المثقوبة، اسمه همام، أبوه مسجون وأمه تخيط

في البيوت، وكان يركض خلف الصفّ ثم يعود إلى بيته وحده في نصف الطريق، كأن له حصة محددة من الغروب لا يتجاوزها.

وحين جلستُ على حافة المصطبة أتظاهر باللامبالاة، اقتربت مني المرأة الأكبر وقالت بلا مقدمات: «انت ابن صفية. صفية طلعت إنسانة قدّام ربنا.» ثم جلست بجانبي وسكتت، وحين نزلت الشمس في الماء وأظلمت الدنيا، قالت لنفسها بصوت مسموع: «خلاص، يوم تاني عدّى.» ونهضت ومشت.

تلك الليلة فهمت الجزء الأول من السر.

سألته في الليلة السادسة، ونحن عائدان: «ليه مش بتقولهم يروحوا للشيخ يهدّيهم؟» فضحك جدّي ضحكة قصيرة: «الشيخ بيقولهم الصبر. أنا بقولهم المغرب جه. الكلام يا محمود نصيحة، أما الجرس فموعد. والحزين مش محتاج نصيحة، الحزين محتاج موعد يروحه كل يوم ومحدش يسأله ليه جاي.»

الجزء الثاني فهمته حين سقط جدّي عن المصطبة في شهر رمضان. كُسرت ساقه، ونُقل إلى مستشفى سوهاج المركزي، وصارت القرية

بلا جرس. في أول غروب بعد غيابه، جلستُ على سطح دارنا أدخّن سيجارة مقفّاة، وشاهدت الشمس وهي «تتأخر». لم تتأخر طبعًا؛ الشمس لا تتأخر. لكن المساء تمدّد في صدري كأنه مطّاط. أمي ماتت من شهر. جدّي في المستشفى. وأنا أعود إلى القاهرة بعد يومين، إلى امتحان أخفقت فيه مرتين. كل شيء في حياتي كان ناقصًا نصف رنّة.

فنزلت، وأخذت الجرس النحاسي من مكانه فوق المدفأة، ومشيت إلى المصطبة.

في أول عشر خطوات رننتُ وشعرت بالخزي. في العشرين الثانية رننتُ ولم أشعر بشيء. في الثلاثين رننتُ فوجدت امرأة تلحق بي، ثم رجلًا عجوزًا يسند على عصا، ثم الطفل ذا الكرة المثقوبة. لم أقل «جهّزوا قلوبكم» لأنني خجِلت من العبارة، فقلت أول ما جاء على لساني: «يلّا، لسّه فاضل شوية.» ومشينا. مشينا حتى غابت الشمس تمامًا، وحين غابت بكيتُ كما لم أبكِ منذ العزاء، بكيت وأنا أمشي، ولم يلتفت أحد لينظر إليّ، لأن ذلك، كما فهمت لاحقًا، هو جوهر

الوظيفة: أن تمشي في صفّ يسمح لك بالبكاء أمام الناس دون أن يراك أحد.

زرته في مستشفى سوهاج قبل سفري بيوم. كان ساكنًا في عنبر من اثني عشر سريرًا، ساقه معلّقة في جبس، ومع ذلك سألني أول ما رآني، لا عن ساقه ولا عن النتيجة: «رنّيت امبارح؟» قلت: «رنّيت.» فأغمض عينيه وقال: «طيّب. الناس بتوصل أكتر من الشمس.» ثم فتح عينيه فجأة وقال بجدّية مفاجئة: «بس اسمع يا محمود، الجرس مش سحر. أنا راجل بيطلع يمشي العصر، ولو بطّلت مية سنة الشمس هتفضل تنزل في معادها. اللي بيتغيّر مش الشمس، اللي بيتغيّر إن حد ينزل يمشيها ماشي مش مهزوم.»

عدت إلى القاهرة، وتسلّمت في الأسبوع نفسه ورقة من جدّي بخط يده المرتعش: «يا محمود، الشمس مش محتاجة تتطرد. الناس اللي محتاجين حد يقولهم إن اليوم خلص، ومسموح لهم يعيشوا الليل. الجرس بتاعك لو عايزه، والمصطبة ليها صاحب غيرك لو شغلك خلّاك.»

تخرّجت بعد سنتين. وحين حصلت على وظيفة محاسب في أحد البنوك، طلبت النقل إلى فرع الأقصر. ضحك المدير: «في حد بيطلب الأقصر؟» قلت: «أنا.»

والآن، قبل المغرب بساعة، أخرج من شقتي الصغيرة في شارع التلفزيون، وأقطع الكورنيش حتى المصطبة القديمة بين بلدنا والبلد اللي جنبنا، وأرنّ مرة كل عشر خطوات. جدّي مات من أربع سنين وهو نائم، ولما رجعت من دفنه وجدت على باب دارنا عشرات الأجراس الصغيرة، تركها أهل القرية هناك كأنهم يقولون: شفناك، واخترناك.

الناس في القاهرة كانوا يظنون جدّي مجنونًا. أنا أعرف أنه كان أعقل رجل في مصر: هو أول من اكتشف أن الغروب ليس فلكًا بل اتفاق. اتفاق بين النهار أن يعطينا الحد الأقصى، وبين الليل أن يستأذن قبل الدخول، وبين الناس أن يمشوا معًا قليلًا حتى يصبح الوداع ممكنًا.

وكل مساء، حين تلمس الشمس حافة النيل، أقول للذين يمشون خلفي، جُددًا وقدماء: «جهّزوا قلوبكم.»

ثم نمشي، والماء يحمل الضوء الأخير، وحين يغرق القرص تمامًا أسمع خلفي تنفّسًا طويلًا مشتركًا، كأن القرية كلها كانت حابسة نفسها منذ الفجر.

خلاص. يوم تاني عدّى.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app